

رثاء التهامي لابنه (معاناة الفقد)

(أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان
قسم الأدب والنقد
كلية اللغات - جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
arharidy@gmail.com

خلاصة — يتناول هذا الموضوع تحليلاً أدبياً لمقاطع من مرثي أبي الحسن التهامي لابنه الذي مات ولما يبلغ مبلغ الشباب بعد.

الكلمات المفتاحية: رثاء، التهامي، القرن الرابع، الشام، الأبناء.

I. المقدمة

رثى أبو الحسن التهامي ابنه الذي مات بمرثي بديعة مبكية تتخللها الحكمة والموعظة وقد اتعبرت قصيدته من نماذج الرثاء المشهورة في رثاء الأبناء.

II. موضوع المقالة

يضفي أبو الحسن التهامي على ابنه العديد من الصفات، أكثرها يصب في معاني النور والضياء والإشراق:

رُزْتُ بِمَاءِ الْعَيْنِ يُحْسَبُ كَوَكْبًا تَوَلَّدَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الْبَدْرُ

بِأَبْلَجٍ لَوْ يَخْفَى لَنَمَّ ضِيَاؤُهُ عَلَيْهِ كَمَا نَمَّ النَّسِيمُ عَلَى الزَّهْرِ

بِنَفْسِي هَلَالٌ كُنْتُ أَرْجُو تَمَامَهُ فَعَاجِلَةٌ الْمَقْدَارُ فِي غَرَّةِ الشَّهْرِ

وهو حين يضفي على ابنه العديد من الصفات النورانية، لا ينسى أن يصفه كذلك بصفات القوة والشجاعة:

وَسَيْلٌ رَجَوْنَا أَنْ يَكُونَ غَضَنَفَرًا فَمَاتَ وَلَمْ يَجْرَحْ بِنَابٍ وَلَا ظَفَرِ

مات الشبل الابن الذي رجا أبوه أن يكون أسداً، مات ولم يشد عوده أو أدوات قوته - الناب والظفر - وما ذلك إلا بقضاء الله:

أَتَاهُ قَضَاءُ اللَّهِ فِي دَارِ غَرَبَةٍ بِنَفْسِي غَرِيبِ الْأَصْلِ وَالْقَبْرِ وَالْقَدْرِ

مات الابن وأتاه قضاء الله في دار غربة، وهذه الدار هي مدينة الرملة بفلسطين، ووصف التهامي لها بدار الغربة دلالة على أنه لم ينس قط وطنه الذي انحدر منه - أرض تهامة بالجزيرة العربية - فعلى الرغم من تلك الحياة الطويلة بالرملة فقد عدها دار غربة، وهذه الغربة تتعدد، فبالإضافة إلى كونها غربة دار فهي غربة أصل؛ لأن أصوله من تهامة وليست من الشام، وغربة قبر؛ حيث لم يدفن في موطنه الأصلي، وغربة قدر؛ لأن قدر الإنسان في بلده وسط أهله وعشيرته غير قدره بعيداً عنهم.

وتشدد المعاناة به وتبلغ ذروتها، فيفعل ما لا بد من فعله مرعفاً مكرهاً: (1)

أَحْمَلُهُ ثِقْلَ التَّرَابِ وَإِنِّي لِأَحْسَى عَلَيْهِ الثَّقْلَ مِنْ مَوَاطِي الدَّرِّ

وأودعه غزاةً غير أمينة عليه ولكن قاذ شراً إلى شرٍّ

ويقسم التهامي أنه لو كان باستطاعته أن يقاسم ابنه الردى لفعل، وماتا معاً، أو لو كان باستطاعته أن يقاسمه عمره لفعل وعاشا معاً، لكننا أرواحنا ليست ملأنا:

فَوَاللَّهِ لَوْ أَسْطِيعُ قَاسَمْتُهُ الرَّدَى فَمِئْتًا جَمِيعًا أَوْ لِقَاسَمْنِي عُمْرِي

وَلَكِنَّمَا أُرْوَاخُنَا مَلِكٌ غَيْرِنَا فَمَالِي فِي نَفْسِي وَلَا فِيهِ مِنْ أَمْرِ

ويقرر الشاعر حقيقة يعلمها كل الخلق، وهي أن الأيام أخذت ما وهبت لكنه تمنى لو كانت أخذت تلك الهبات مكرماً جداً قبل أن يتعلق بها، ويبيّن الأمل الطوال عليها:

وَمَا اقْتَضَتْ الْأَيَّامُ إِلَّا هِبَاتِهَا فَهَلَّا اقْتَضَتْهَا قَبْلَ أَنْ مَلَأَتْ صَدْرِي

وَمِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْرِيَ هَوَاهُ وَإِفْهُ بِقَلْبِي جَزِي الْمَاءِ فِي الْغُصْنِ النَّضْرِ

وينفطر قلب الشاعر، وتمزق ذاته، فيسوغ البكاء والحزن على فقده لابنه، لأنه أقرب الأقربين إليه:

فَأَنْ أَبُكَ فَالْقُرْبَى الْقَرِيبَةَ تَقْتَضِي بُعَابِي وَإِنْ أَصْبِرُ فَبِقَبْأِي عَلَى الْأَجْرِ

فِي مَنَّهُ مَا يُوهِي الْقَوَى غَيْرَ أَتْنِي بَنِيَتْ كَمَا بَنِيَتْ الْكَرِيمُ عَلَى الصَّبْرِ

وما صبر محزون جناح فواده يرفرف ما بين التراب والنحر

يُقَلِّبُ عَيْنًا مَا تَنَامُ كَاتَهَا بَلَا هُدْبٍ يَتْنِي عَلَيْهَا وَلَا شَفْرِ

غَطَا دَمْعُهَا إِسْنَاتَهَا فَكَأَنَّهُ غَرِيقٌ تَسَامَى فَوْقَهُ لَجَجُ الْبَحْرِ

يُنْغَصُ نَوْمِي كُلَّ يَوْمٍ وَيَقْظِي خَيَالٌ لَهُ يَسْرِي وَذُكْرٌ لَهُ يَجْرِي

ويوسع صدري بالحديث أذكاره على أن ذاك الوسع أضيق للصدر

وَقَالُوا سَيْسَلِيهِ النَّاسِي بغيره فَقُلْتُ لَهُمْ هَلْ يُطْفَأُ الْجَمْرُ بِالْجَمْرِ

أَيَنْدَمِلُ الْجُرْحُ الرَّغِيبُ بِمِثْلِهِ أَلَا لَا وَلَكِنْ يَسْتَطِيرُ وَيَسْتَشْرِي

وليت النَّاسِي بِالْمُصِيبَةِ كَانَ لِي كَفَافًا فَلَا يُسَلِّي هُنَاكَ وَلَا يُغْرِي

فَلَا تَسْأَلُونِي عَنْهُ صَبْرًا فَإِنِّي دَفَنْتُ بِهِ قَلْبِي وَفِي طَيْهِ صَبْرِي

فَالَا تَكُنْ قَلْبِي فَإِنَّكَ شِطْرُهُ قَدِدْتُ كَمَا قَدَّ الْهَلَالُ مِنَ الْبَدْرِ

يسوغ الشاعر بكاءه المفجع لابنه أن القربى القريبة تقتضي ذلك، وهل يوجد أقرب من الابن بالنسبة للأب؟! أما إذا فَنَرَّ للشاعر أن يصبر على مصابه فما ذك إلا طلبًا للثواب.

(١) ديوان أبي الحسن التهامي.

(٢) السابق.